

الخصائص اللغوية والنحوية في شعر الصعاليك

شوقي المعري

لم يكن شعر الصعاليك بدعاً من سائر الشعر الجاهلي ، أي أنهم كما اتهم الشعر الجاهلي كله من قبل د. طه حسين وغيره على أنه منتحل على أصحابه الذين عاشوا في الصحراء متنقلين من مكان إلى آخر ، هاربين من ظلم الحياة . مطاردين ومطاردين قبائل أخرى في الصحراء ينهبون ويسلبون ، فكانوا طائفة خارجة على المجتمع ، متمردة على أوضاعه وتقاليده . فلم يحفل بهم القدماء وخاصة الذين جمعوا أشعار الجاهليين - لأنه لم تكن هناك أواصر صداقة ومودة بينهم وبين مجتمعهم - فذهب أغلب شعرهم نتيجة هذا التشرد في الصحراء .

ولكن على الرغم من هذا فقد وصلت إلينا مجموعة كبيرة من أشعار الصعاليك ، وقد توزعت بين كتب اللغة والأدب القديمة كالآغاني ، ولسان العرب ، وجمهرة أشعار العرب ، والمفضليات ، والأصمعيات ، وكتب الحماسة ، وقد وصلت عن طريق قبائلهم أو عن طريق القبائل التي استجاروا بها أو عن طريق الصعاليك أنفسهم الذين كانوا يروون أشعارهم وخاصة عروة بن الورد .

فمن خلال هذه الكتب - مع صعوبة إيجاد ديوان لأحدهم باستثناء ديوان جمع شعر عروة والشنفرى - سنعرض لأهم خصائص شعر الصعاليك ، من الناحيتين اللغوية والنحوية .

١ - الغريب :

ان وجود الغريب في شعر الصعاليك هو الصفة الغالبة على شعرهم بل هو أبرز الصفات على الإطلاق ، ولقد كانت لغتهم لغة الشعر الجاهلي ، فمهما ابتعدوا عن المجتمع

— هاربين مطاردين ومطاردين — فاللغة هي الرابط الأكبر الذي يربطهم بهذا المجتمع . ولغتهم هذه كانت كالعملة التي اتفق المجتمع الأدبي على أنها أساس التبادل الفكري بين أفرادها جميعاً ، وهذه اللغة كثيراً ما اختلف فيها القدماء فيما بينهم في شرحها وتفسيرها لصعوبتها فهي تحتاج الى اجهاد فكري كبير في بعض الأحيان فنحن لا نستطيع قراءتها دون الرجوع الى المعاجم اللغوية الكبيرة . . . والتي احتوت على الكثير من هذه الأشعار التي كثر فيها الغريب ، فشعر الصعاليك مليء ويعج بهذه الألفاظ الغريبة ، ويكاد تأبط شراً يكون على رأس الشعراء الصعاليك في صعوبة لغته ، وهذا ما سنجده من خلال عرضنا لأشعاره . يقول (١) :

وحتث مشعوف النجاء كأنني هجف رأى قصراً سما لا وداجنا
من العصف هزروف كأن عفاءه اذا استدرج الفيها ومد المغابنا
أزج زلوج هزرفي زفازف هزف ييذ الناجيات الصوافنا

اننا نلاحظ في هذه الأبيات الثلاثة أن كل كلمة تحتاج الى تفسير ، وهي من الصعوبة أن تفهم من القراءة الأولى ، وعلينا الرجوع الى معاجم اللغة لشرح كل كلمة ، وأغلب هذه الكلمات تعني السرعة ، وتدور حول معنى الركض والهروب ، والفرار التي كان يحياها هو والصعاليك . . . فهو يركب حصاناً كالمنجئون المذعور يركض بسرعة الظليم وقت غروب الشمس وقد رأى ماء ، وجواده قليل الشعر فتراه لسرعة عدوه يطير شعره اذا استدرج في الفلوات ، ومد أفخاذه في عدوه . ثم هو سريع فازج زلوج وهزرفي كلها تعني السرعة وزفازف تعني الريح ، فهو في هذه الصفات يفوق غيره من الخيول .

ويقول يصف شعباً يسلكه : (٢)

وشعب كشل الثوب شكس طريقه مجامع صوحينه نطاف مغاصر
به من سيول الصيف بيض أقرها جبار لضم الصخر فيه قراقر
تبطنته بالقوم لم يهدني له دليل ولم يثب لي النعت خابر
به سمات من مياه قديمة مواردها ما ان لهن مصادر

فالشاعر يسلك هذا الشعب الصعب الشائك وفيه بقايا من مياه الأمطار التي اجتمعت بين جنباته ، وما تزال فيه بقايا من سيول وغدران تركها سيل عظيم قلع الصخر من أمكنته وأنت تسمع صوته جيداً ، ودخل في الشعب وهو لم يهد اليه ، ولم يعرفه من قبل فوجد فيه بقية من حياة في حوض تركها سيل .

هذه الأبيات كسابقتها صعبة الألفاظ غريبة ، ولكن ما إن نفهمها حتى نفهم معانيها . وقد أورد صاحب اللسان بيتاً لتأبط شراً فيه كلمة غريبة لم يجدها الا في هذا البيت وهي كلمة « الخيعابة » :

ولا خرج خيعابة ذي غوائل هيام كجفر الأبطح المتهيل (٣)

قال صاحب اللسان « ولم أسمع الخيمابة بمعنى الرديء الا في قول تأبط شراً » .
ويقول أيضاً يصف نفسه وقد هرب من بجيلة : (٤)

كانما حثثوا خصاً قوادمه أو أم خشف بذى شث وطباق
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى بواله من قبيص الشد غيداق
عاري الظنايب ممتد نواشره مدلاج أدهم واهي الماء غساق
كالحقف حداه النامون قلت له : ذو ثلثين وذو بهم وأرباق

يقول عندما لحقوا بي فكأنهم حركوا بحركتهم اياي ظليماً أو ظبية ، فنجنا من بجيلة
كالمذعور المجنون الذي فقد عقله من شدة سرعته وهربه وطلبهم اياه . ثم يصف نفسه
فيقول اني عاري الساقين وظهرت عروق الذراع فأنا أدلج الليل الممطر والمظلم ، يعني
انه ذو عزم وقوة وجراً ، ثم شبه عدوه الذي يلحق به - وقد ذكره في بيت سابق - بأن
شعره كالرمل الذي تلبد من كثرة ما سار عليه النامون ، ويحقره بأنه صاحب قطع
من الغنم .

ومن أشعاره التي كثر بها الغريب قوله (٥) :

قليل ادخار الزاد الا تعلقة فقد نشز الشرسوف والتصق المعا

فهو لا يدخر الزاد الا قليلا يتعلل به فائر الطوى حتى هزل ، وترى رؤوس أضلاعه
شاخصة ، وأمعاءه تلتصق بعضها ببعض لخلوها من الطعام :

هذه كلها أشعار مختارة لتأبط شراً ، وكلها - كما رأينا - تحتاج الى اجتهاد فكر ،
والاستعانة بمعاجم اللغة الكبيرة لأننا نقف أمام طلاس لفظية .

ولكن هل كان تأبط شراً وحيداً في هذا المجال أم أن الشعراء الصعاليك الآخرين قد
ضمّنوا أشعارهم مثل هذا الغريب ؟

ان الشنفرى يحذو حذو تأبط شراً في أشعاره من جهة ايراد الغريب ، ويمتاز هو
الآخر بأسلوب خشن في لفظه الذي يمثل الحياة البدوية الجاهلية أصدق تمثيل ،
والقوة التعبيرية عنده تجعل أسلوبه محكماً لا رخاوة فيه الى جانب ما يمتاز به من صدق
التصوير ، والصراحة في النقل عن الحياة ، ولنر أشعاره من خلال ديوانه : يقول (٦)

نمر برهو الماء صفحاً وقد طوت ثمائلنا والزاد ظن مغيب
ثلاثاً على الأقدام حتى سما بنا على العوص شعشاع من القوم محرب
فثاروا إلينا في السواد فهجهجوا وصوت فينا بالصباح المثوب

فهو مع تأبط شراً وغيره من الصعاليك أرادوا مهاجمة العوص فسلكوا الرهو ولم يتوقفوا عنده ، وبعد ثلاثة أيام من السير ظهر له شعاع من هذه القبيلة فصاحت بعد أن ثارت علينا .

ويقول (٧) :

أنا السَّمْع الأزل فلا أبالي ولو صعبت شناخيب العقاب
ولا ظمأ يؤخرني وحر ولا خمص يقصر من طلاب

ويقول (٨)

ونعل كاشلاء السماني تركتها على جنب مور كالنميمة أغبرا
أمشي بأطراف الحمام وتارة ينفض رجلي بسبطا مفضرا

ولصقر الغي قصيدة في كتاب الأمالي تعد من القصائد المغرقة في الاغراب ، صعبة الفهم للمرة الأولى . فإذا ما أراد أحدنا أن يقرأها فعليه أن يتأنى كثيراً في قراءتها ثم أن يشرح ألفاظها لفظاً لفظاً ليفهم بعدئذ معانيها، ومن هذه القصيدة اخترنا هذه الأبيات .

يقول (٩) :

تهزأ مني أخت آل طيسله قالت أراه مبلطاً لا شيء له
وقبلها عام ارتبعنا الجعله مثل الأتان نصفاً جئعد له
وتارة أنبث نبث النقتله خزعة الضبعان راح الهنبله
وهل علمت فحشاء جهله ممغوثة أعراضهم ممرطله
وأمنح الميآحة السبحله وأطعن السحساحة المششله

تكاد هذه الأبيات تكون ملخصة للاغراب كله في شعر الصعاليك . فنحن أمام طلاس لفظية ، تصعب علينا قراءتها ، وفهمها ، فقد جمعت الى جانب الاغراب أن صخر الغي قد نظمها على قافية الرجز التي هي من أصعب أنواع الشعر وأغربها .

أما أبو خراش الهذلي فهو مثال صادق - في لفظه - للشاعر الفطري القديم ومثال صادق للشعراء الذين عاشوا في البيدواألفوها وعرفوها . فكان يصدر شعره بعفوية دون أن يهتم به أو يزينه أو يتأنق فيه . انما جاء شعره غريباً خشناً متلاحقاً يعدل في سرعته سرعة حياته ، ويشبه في صلابته أيامه . يقول (١٠)

رفوني وقالوا ياخويلد لم ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم
فغاليت سبّاق الدريس كانما تززعهم موم من الورد مُردم
فوالله ما ربداء أو عالج عانة أقب وما ان تيس رمل مصمم

أَتَبَّتْ حَبَالٌ فِي مَرَادٍ يَرُودُهُ فَأَخْطَأَ مِنْهَا كِفَافٌ مَحْزَمٌ
كَانَ الْمَلَأُ الْمَمْضُ خَلْفَ ذِرَاعِهِ صُرَاحِيَةٌ وَالْأَخْنِيَّ الْمَخْذَمُ
أَوَائِلُ بِالْشَدِّ الذَّلِيقُ وَحَثْنِي لَدَى الْمُتَنِّ مَشْبُوحُ الذَّرَاعَيْنِ خَلْجَمُ

لم يقف الغريب عند هؤلاء الشعراء فحسب بل لم يبق شاعر من شعراء الصعاليك إلا وغلب على شعره الذي قاله الغريب . الغريب في اللغة من حيث القراءة ، وأحياناً من حيث القافية ، وأحياناً أخرى صعوبة في الألفاظ الغريبة .

لقد كانت أشعار الصعاليك مرجعاً للغويين القدماء فاحتوت كتبهم من معاجم أو كتب أدب ، الكثير من هذه الأشعار فاستشهدوا بها ، فهي لا شك معين للباحث اللغوي وما تزال حتى الآن .

لقد غلبت هذه الصفة - الاغراب - على جميع الشعراء الصعاليك دون عروة ولكن لماذا ؟

لماذا لم تكن أشعار عروة بن الورد مغرقة في الاغراب الى الحد الذي وصل غيره اليه ؟ هل - كما قال يوسف خليف - لأنه الزعيم الشعبي وأبو الصعاليك ، فعليه أن يخاطب الجماهير بلغة يفهمها الجميع ، ولأنه لم يمتزل مجتمعه ، ولم يعيش في الصحراء فجاء أسلوبه شعبياً سهلاً اللفظ - بالقياس الى شعر الصعاليك - وواضح المعنى قريب التعبير لا تكليف فيه ولا تنميق .

اننا اذا ما طالعنا ديوان عروة بن الورد فاننا سنقع على بعض الأبيات التي تحوي ألفاظاً غريبة ، أي اننا لا يمكن أن نحكم على جميع شعره أنه سهل بسيط ، فهو اذا ما قال : (١١)

أَقْبَ وَمَخْمَاصُ الشِّتَاءِ مَرْزَعَا إِذَا اغْبَرَّ أَوْلَادُ الْأَذْلَةِ أَسْفَرَا

فنحن لن نفهم قوله هذا من المرة الأولى ، وعلينا أن نعود الى معاجم اللغة لنشرح الألفاظ الصعبة ثم لنفهم ما يقصد . . ومثل هذا قوله : (١٢) .

وَإِنْ شَتَّمْتَ حَارِيتُمُونِي إِلَى مَدَى فَيَجْهَدُكُمْ شَاوُ الْكَظَاظِ الْمَغْرَبِ

فالكظاظ ما يملأ القلب من الهم والتعب والشدة . . وكان بإمكانه أن يأتي بلفظ أسهل من هذا وقريب الى المعنى . . ويقول : (١٣)

أَفِي نَابٍ مَنَحْنَاهَا فَقِيرَا لَهُ بَطَانِنَا طَنْبُ مُنْصِتِ

تَبِيتَ عَلَى الْمُرَافِقِ أَمْ وَهَبَ وَقَدْ نَامَ الْعَيُونُ لَهَا كَتِيتَ

وَرَبَّتْ شَبْعَةٌ أَثَرَتْ فِيهَا يَدَا جَاءَتْ تَغْيِرُ لَهَا هَتِيتَ

ففي هذه الأبيات ألفاظ غريبة كقوله كتيت وهو صوت غليان القدر وكلمة طنب وتعني الحبل الطويل الذي يشد به سرادق البيت أو الخيمة .

هذه الأشعار التي أوردناها لعروة تؤكد لنا أن أشعاره لم تخل من الاغراب في اللغة شأنه شأن أسرته من الصعاليك .

وأخيراً فهذه الأشعار تكاد تكون قاسماً مشتركاً عند جميع الشعراء الصعاليك وإذا ما قيست بشعر الشعراء الجاهليين - من غير الصعاليك - فهي مثله في غرابتها وتفوقه أحياناً عند بعضهم كما عند تأبط شراً ونستطيع أن نعيد هذا الى الحياة البدوية الجاهلية التي عاشها الجاهليون والصعاليك معاً . . . لكن فرقاً واضحاً بين الشعراء الصعاليك والشعراء الجاهليين يظهر واضحاً جلياً ، وهو أن الصعاليك عندما أتوا بهذا الغريب لم يعمدوا اليه ويتأنقوا فيه على عكس الجاهليين الذين اعتنوا بشعرهم أكثر ، فجاء أحياناً وقد ظهرت فيه آثار الصنعة الفنية كما في المدرسة الأوسية .

٢ - عدم التكلف :

لم يكن الشاعر الصعلوك يفرغ نفسه لكي يتأنق في شعره ليأتي به على أحسن حال . . . بل ان واقع حياته هو الذي لم يسمح له بهذا ، فالصعلوك دائماً متنقل ، هارب ، وأنى له الاستراحة والهدوء لأعمال فكره في الشعر . فإذا أراد السليك بن السلكة أن يوصل خبراً لرفيقتين له قال هذا الخبر وهو يركض ويعدو بسرعة فكيف سيأتي هذا الشعر منق الألفاظ؟ يقول :

يا صاحبي ألا لا حي بالوادي إلا عبيد رأم بين أذواد
أنتظران قليلاً ريث غفلتهم أم تعدوان فان الريح للعادي (١٤)

ولكن للشعراء الصعاليك أشعار نلاحظ فيها التفنن في القول ولكنها قليلة ونمثل لهذا بقصيدة لتأبط شراً قالها بعد أن نجا من أعدائه لحيان وعندما عاد الى قومه : يقول :

فذاك قريع الدهر ما عاش حوئل إذا سد منه منخر جاش منخر
أقول للحيان وقد صغرت لهم وطابي ويومي ضيق الحجر معور
هما خطتا اما اسار ومنة واما دم والقتل بالحر أجدر (١٥)

هذه الآثار تتردد بين الفينة والأخرى في شعر الصعاليك ، « ولكن هذه الصنعة قليلة لا تكفي لتكوين مذهب فني خاص نبيح لأنفسنا أن نجعله من خصائص شعر الصعاليك » (١٦) .

ويمكن أن ندخل ضمن هذا الباب بعض الأبيات التي قالها الصعاليك وقد حوت التشابيه التي اعتمدت على الموازنة السريعة بين شيئين ، لكن هذه الصور التي جاؤوا بها كانت قاتمة قليلة الاشراف ، أما مصدر هذه التشابيه فكان من عالم الحيوان والطبيعة والانسان

يقول أبو الطمحان :

إذا شاء راعيها استقى من وقية كعين الغراب صفوها لم يكدر (١٧)

ويقول صخر النفي :

وأقبل مرأى الى مجدل سياق المقيد يمشي رسيفا (١٨)
ويقول الأعلم :

سود سخاليل كان جلودهن ثياب راهب (١٩)
ويقول عروة مشبهاً صوت الرعد بزئير الأسد :

كان خوات الرعد رز زئيره من اللاء يسكن الغريف بعثرا (٢٠)
ومن الصور الجميلة هذان البيتان للشنفرى من تائيته المفضلية :

فبتنا كان البيت حُجّر فوقنا بريحانة ريحت عشاء وطلت
بريحانة من بطن حلية نوّرت لها أرج ما حولها غير مستنت

فصاحبتة طيبة الرائحة تملأ البيت عطراً وكان البيت أغلق على ريحانة مطلولة سرت إليها نسيمات باردة في وقت العشاء فجاءت بأريجها المعطر وهذه الريحانة نبتت في ربوة، ولهذا هي قوية الرائحة وهي ناضجة خرج نورها وانتشر عطرها في كل جانب ، وهي فوق كل ذلك قابعة في بقعة خصبة كل ما حولها خصب .

وهذا يقودنا الى خاصة من خصائص شعر الصعاليك وهي :

٣ - الدقة في التعبير :

وهذه الدقة تتجلى في أبياب عديدة ، وهي مظهر من مظاهر الصراحة الواقعية فنحن نرى هذه الدقة في الأرقام وتحديد الأماكن بدقة وتحديد اللفظ المعبر بدقة .
يقول تأبط شراً :

تقول تركت صاحباً لك ضائعاً وجئت الينا فارقاً متباطئاً
إذا ما تركت صاحبي لثلاثة أو اثنين مثلينا فلا أبت آمناً (٢١)

ومثال الدقة في تحديد الموقع الجغرافي قول الأعلم الهذلي :

فلست لحاصن ان لم تروني ببطن ضريحة ذات النجال
وأمي قينة ان لم تروني بعورث وسط عرعرها الطوال (٢٢)

والى جانب هذه الدقة في تحديد الموقع الجغرافي نجد الدقة في اللفظ الذي يحدد التعبير الدقيق والذي يحدد بدوره مدلول العبارة . فتأبط شراً يحدد لنا خروج الحية بدقة بعد غروب الشمس وكأنه يعرف الدقيقة التي تخرج بها . يقول :

أصم قطاري يكون خروجه بعيد غروب الشمس مختلف الرمس (٢٣)

ويقول أبو خراش :

فلما رأين الشمس صارت كأنها فويق البضيع في الشعاع خميل (٢٤)

لقد وصل الشعراء في الدقة درجة عالية، ويمكن أن نصادف عدداً من هذه الأبيات ولكن هل جاءت وليدة اعمال فكر ؟

أظن انها لم تأت نتيجة الاجهاد والاعمال، ولو كانت كذلك لرأينا العدد الأكبر منها، فهي لا شك جاءت عفوية وذلك قياساً مع طريقة حياتهم على عكس الشعراء الجاهليين الذين كانوا يقضون سنة كاملة في نظم القصائد التي سميت بالحوليات .

٤ - عدم الحرص على التصريح :

لأن الصعلوك كان ثائراً على مجتمعه تجيش في نفسه النزعة القوية للثورة على المجتمع وأوضاعه وتقاليده ، والعمل على وصوله الى الحرية التي طالما ناضل للوصول اليها . فهو لم يقلد المجتمع هذا ، حتى في شعره الذي لم يبدأه بالتصريح ، بالاضافة الى أن شعر الصعاليك هو شعر مقطعات والتصريح يكون غالباً في القصائد الطوال ، ويمكن أن تكون قصائدهم قد صرّعت ولم تصل إلينا منها الا مقطعات أما القصائد المصرعة المطالع فأشهرها قصيدة الشنفرى المفضلية ومطلعها :

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها اذ تولت (٢٥)

وقصيدة تأبط شراً القافية ومطلعها :

يا عيد مالك من شوق وايراق ومر طيف على الأهوال طراق (٢٦)

وقصيدة عروة ومطلعها :

أقلي علي اللوم يا بنة منذر ونامي فان لم تشتهي النوم فاسهري (٢٧)

٥ - مسائل نحوية وصرفية :

لاحظ العلماء اللغويون القدماء أن هناك شعراً للصعاليك تصرف فيه أصحابه كما يشاؤون ولم يتقيدوا بالقواعد النحوية والصرفية المعتمدة فوجدوا بعض الكلمات التي أتت على وزن لم يستعمله أحد الشعراء قبلهم أو أنهم صرفوا الفعل على غير القياس . من هذه الأبيات قول عروة :

أطعت الأمرين بصرم سلمى فطاروا في عضاه يستعور (٢٨)

قال ابن جني « لم يجيء في الأسماء يفتعل الا يستعور وهو موضع (٢٩) » وقال صاحب اللسان « بل هو شجر يستاك به . وقيل انه يريد السعير . » (٣٠)

وقول عروة :

وقالوا ما تشاء ؟ فقلت : ألهو الى الصباح أثر ذي أثر (٣١)

فهو أراد اللهو فوضع ألهو موضعه لدلالة الفعل على مصدره . وهو مثال قولك لمن قال لك : ما يصنع زيد ؟ يصلي ، أو يقرأ ، أي الصلاة والقراءة .
وقول السليك :

على قَرَماء عالية شواه كان بياض غرته خمار (٣٢)
فقرماء على وزن فعلاء وهو مثال نادر في الاسم والصفة .
وقول عروة :

إذا قلت قد جاء الغنى حال دونه أبو صبية يشكو المفاقر أعجف (٣٣)
فجمع المفاقر على غير قياس وهي جمع للفقير .

ومن الشواهد التي تصرف فيها الشعراء صرفياً في الفعل قول الأعمى :
كان ملأتي على هـزفٍ يعن مع العشية للرنال (٣٤)
فرفع عين الفعل يعن والصحيح كسر عين الفعل عن يعن .
ويلحق بهذه الخاصة خاصة أخرى هي استعمال بعض الألفاظ لغير الأصل :
يقول أبو خراش :

ولا أمغر الساقين ظل كانه على معزلات الاكام نصيل (٣٥)
فالأمغر يقال للرجل ، ويقال للمرأة مغراء ولكن أبا خراش استعمل اللفظ للابل .
ويقال للرجل اذا سقط خرّ لكن أبا خراش أعطى هذه الصفة للسيف . يقول :

به أدع الكمي على يديه يخرّ تغاله نسرأ قشيبا (٣٦)
أما تأبط شراً فيرى أن السماء هي أم النجوم ، وقيل ان أم النجوم المجرة لأنه ليس من السماء بقعة أكثر عدد الكواكب منها . يقول :

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (٣٧)
٦ - عيوب الشعر :

يعد عروة الوحيد بين الشعراء الصعاليك الذي كثرت عنده العيوب الشعرية ، ومن هذه العيوب القلب في قوله :

فلو أني شهدت أبا معاذ غداة غدا بمهجته يفوق
فدیت بنفسه نفسي ومالي وما آلوك الا ما أطيق (٣٨)

فقد اضطره الوزن الشعري الى احوالة المعنى فقلبه عروة الى خلاف ما قصد به فهو أراد أن يقول فديت نفسه بنفسي . .

ومن العيوب بتر المعنى في البيت الأول واتمامه في البيت التالي : قال عروة :

فلو كاليوم كان علي أمري ومن لك بالتدبر في الأمور

لم يتم المعنى في هذا البيت فقال لاتمام المعنى :

إذا ملكت عصمة أم وهب علي ما كان من حسك الصدور (٣٩)

ومن هذه العيوب الحذف كأن يحذف الشاعر كلمة من اللفظ يتم المعنى بها . يقول :

عجبت لهم اذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا (٤٠)

فانما أراد أن يقول عجبت لهم اذ يقتلون نفوسهم في السلم ومقتلهم عند الوغى أعذر فحذف « في السلم » .

لقد انفرد عروة بهذه الخاصة من دون غيره . والسبب ربما لأن عروة كان قليل الاغراب في شعره مما جعله يتأنق بعض الشيء في ألفاظه .

٧ - البيت المقلد - المستغني بنفسه :

من خلال قراءتنا لأشعار الصعاليك نقع على أبيات استغنت بنفسها ، وجاءت بـين طياتها الحكمة أو المثل عبرت عن معان جميلة صادقة ، نابعة من الواقع الذي يعيشه الصعلوك وهذا بعض منها :

يقول تأبط شراً :

هما خطتا اما اسار ومنة واما دم والقتل بالحر أجدر (٤١)

وله أيضاً بعض الأبيات التي قصد بها الارشاد والتعليم ، وتذكرنا بأبيات زهير بن أبي سلمى في معلقته . يقول :

إذا المرء لم يحتل وقد جدّ جدّه أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً من الخطب الا وهو للقصد مبصر (٤٢)

ويقول :

ومن يغزّ بالأعداء لا بد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعاً (٤٣)

ويقول :

ومن يغزّ يغنم مرة ويشمّت (٤٤)

ويقول عمرو بن براق :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم (٤٥)

ويقول أبو خراش :

حمدت الهي بعد عروة اذ نجى خراش وبعض الشر أهون من بعض (٤٦)

لقد كانت معاني هذه الأبيات معاني جاهلية بدوية ، تدور في أغلبها حول الصراع والقتال أي أنها تمثل الجزء الأكبر من حياة الصعاليك ، وهي شديدة الاتصال بوقائع هذه الحياة .

وبعد استعراضنا لخصائص اللغة عند الشعراء الصعاليك وجدنا أن القصيدة عندهم لم تكن إلا مقطعات وربما عاد هذا إلى ضياع أغلب شعرهم ، وهذا يعني أن القصيدة الواحدة - القصيرة لم تكن تتناول أكثر من موضوع واحد خلا من المطلع الغزلي أو الطللي ، وخلا مطلعها من التصريح ، ولقد حفلت هذه الأشعار بالغريب الذي كان عفويةً وبحكمهم العفوية التي استقوها من حياتهم اليومية .

وأخيراً يمكن أن نلخص لغة الصعاليك بهذه الكلمات : « مثال صادق في لفظه للشاعر الفطري القديم ، ومثال صادق للشعراء الذين عاشوا في البيد وألفوها وعرفوها ، فكانت تصدر بعفوية دون اهتمام أو تزيين أو تأنق ، إنما جاء شعرهم غريباً خشناً متلاحقاً يعدل في سرعته سرعة حياته ويشبه في صلابته صلابه أيامه » .

★ ★ ★

□ الهوامش :

- ١ - الأغاني ١٣٦/٢١ لجنة نشر الكتاب - القاهرة .
- ٢ - الأصمعيات ١٢٥ - تحقيق شاكر وهارون .
- ٣ - اللسان (خعب) .
- ٤ - المفضليات ٢٧ - ٣١ . تحقيق شاكر وهارون .
الأغاني ١٣٢ / ٢١ .
- حماسة البحري - ٥٢ . تحقيق لويس شيخو .
- ٥ - حماسة أبي تمام ٦٧/٢ - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
الأغاني ١٤٥/٢١ .
- ٦ - الطرائف الأدبية ٣٢ .
- ٧ - الطرائف الأدبية ٣٣ اللسان (شغب) .
- ٨ - الطرائف الأدبية ٣٥ .
- ٩ - أمالي القالي ٢٨٨/٢ . دار الكتب العلمية .
- ١٠ - حماسة البحري ٤٩ .
- الخصائص ٢٤٧/١ - ٢٥٨ - ٣٣٧/٣ . تحقيق محمد علي النجار .
- ١١ - ديوان عروة - دار صادر - ٣٥ .
- ١٢ - ديوان عروة - دار صادر - ١٧ .
- ١٣ - ديوان عروة - دار صادر - ١٧ .
- ١٤ - الأغاني ٣٧٧/٢٠ .
- ١٥ - حماسة أبي تمام ٣٨/١ - العقد الفريد ٢٢/٣ .
- ١٦ - يوسف خليف ٣٠٨ .
- ١٧ - الأغاني - بولاق ١٣٤/١١ . الحيوان ٤٢١/٣ .
- ١٨ - د. الهدلين ٧٠/٢ مصورة عن دار الكتب .
- ١٩ - د. الهدلين ٨٠/٢ .
- ٢٠ - ديوان عروة ٥٦ .
- ٢١ - الأغاني ١٣٥/٢١ .
- ٢٢ - شرح أشعار الهدلين ٢٣٧/١ - معجم البلدان ١٦٧/٤ .
- ٢٣ - اللسان (قطر) .
- ٢٤ - د. الهدلين ١١٩/٢ .
- ٢٥ - المفضليات ١٠٨ - الأغاني ١٨٦/٢١ - الطرائف ٣٣ .
- ٢٦ - المفضليات ٢٧ - الأغاني ١٣٢/٢١ .
- ٢٧ - الأصمعيات ٤٣ .
- ٢٨ - د. عروة ٣٢ - د. عروة بشرح ابن السكيت ٥٨ . المزهري ٦٥/٢ - مقاييس اللغة ٧٦/٣ .
- ٢٩ - المصادر السابقة .
- ٣٠ - اللسان (سعر) .
- ٣١ - وهو من الشواهد المشهورة . انظر ابن جني في الخصائص ٤٣٣/٢ .
- ٣٢ - الكتاب ٢٥٨/٤ - معجم البلدان قرماء ٣٢٩/٤ .
- ٣٣ - د. الحماسة ٢٤٦/٤ .
- ٣٤ - د. الهدلين ٨٣/٢ . حماسة البحري ٥١ .
- ٣٥ - مقاييس اللغة ١٢٥/١ .
- ٣٦ - مقاييس اللغة ١٤٩/١ .
- ٣٧ - مقاييس اللغة ٢٤/١ .
- ٣٨ - الموشح ٨٥ .
- ٣٩ - الموشح ٨٦ .
- ٤٠ - الموشح ٢٣٣ . وديوانه ٨٢ .
- ٤١ - حماسة أبي تمام ٧٥/١ .
الأغاني ١٤١/٢١ .
- ٤٢ - العقد الفريد ٢٢/٣ .
- ٤٣ - حماسة أبي تمام ٦٧/٢ . الأغاني ١٤٥/٢١ .
- ٤٤ - المفضليات ١٠٨ .
- ٤٥ - حماسة البحري ٢١ . المؤلف والمختلف ٨٨ .
- ٤٦ - حماسة أبي تمام ٢٨٠/٢ .